
شعر

لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ ...

صلاح بوسريف

قَبْلَ أَنْ يَشْرَبَ النَّوْمُ يَقْطِطِي، كَانَتْ لَمْعُ الضُّوءِ الْمَتَسَرِّبَةِ مِنَ النَّافِذَةِ
تَتَلَاشَى، لَيْلٌ كَثِيفٌ لَفَّ الْغُرْفَةَ، وَ الرَّؤْيَا بَدَأَتْ تَنْسُحُ حَوْلِي أَحْدَاقَهَا:

«مَاءٌ كَثِيرٌ كَانَ يَأْتِي مِنْ جِهَاتٍ شَتَّى
نِسْوَةٌ وَأَطْفَالٌ يَتَعَاقِبُونَ عَلَيَّ بِئْرٍ وَاحِدَةٍ
يَشْرَبُونَ بِشَعْفٍ، رَغَمَ مَرَارَةَ مَائِهَا!

ما الذي يَحْدُثُ؟!
مَنْ أَيْنَ يَأْتِي كُلُّ هَذَا الْمَاءِ، وَمَاذَا يَتَهَافَتُ هَؤُلَاءِ عَلَيَّ بِئْرٍ، مَاءُهَا
مَرَّةً، أَوْ
لَا

عُشْبٌ يَرْشَحُ مِنْ عَمْرِهَا...

صلاح بوسريف، شاعر من المغرب.

فَتَقُّ وَحِيدٌ مِنْهُ تَصْعَدُ سَحْبٌ
لَا طَيْرٌ يَحْلُقُ فِي أَنْحَائِهَا ..

كُنْتُ عَلَى وَشِكِ أَنْ أُدْلِيَ بِشَهَادَتِي :

مَا

كَانَ يَبْقَى أَنْفُسَنَا مِنَ الْمَوْتِ
لَيْسَتْ السَّمَاءُ . كَانَ الْإِنْسَانُ حِينَ تَدْنُو مِنْ نَفْسِهِ نَدَاوَةٌ رِيحِ قَادِمَةٍ ،
يَجُوبُ الْأَرْضَ ، بَاحِثًا فِي زَرْعِهَا عَنْ خُبْزٍ ، أَوْ يَخْرُجُ إِلَى أَقْرَبِ
أَرْضٍ ، يُرَاوِدُ وَحَيْثُهَا ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الشُّعْرَاءُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ .

سَيَّانٍ ؛ فَالزَّرْعُ صَيْدٌ مِثْلَ بَيْتِ الْقَصِيدِ .

عَلَى حِينِ غُرَّةٍ ، كَانَ اللَّيْلُ لَيْسَ نَهَارَهُ ، وَتَوَارَى ، لِتَبْدُو الشَّمْسُ وَاقِفَةً
فِي أَوَّلِ السُّطْرِ .

– مَنْ أَيْقَظَ الطُّفْلَ مِنْ نَوْمِهِ ؟

كُنْتُ ، بَعْدُ ، لَا أَعْرِفُ أَنَّ الْيَقَظَةَ تَشِي بِحُلْمِ حَدَثٍ ، وَأَنَّ تَذَكُّرَ
الْأَحْلَامِ ، خَيْرٌ مِنْ جَهْلِهَا .

– الطُّفْلُ خَرَجَ مِنْ نَوْمِهِ مَذْهُولًا
بَدَأَ لَهُ ، كَيْفَ النَّهَارُ يَلِجُ اللَّيْلَ ، وَالنَّارُ ، يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ جَمْرُهَا بَرْدًا ،

وإلا بماذا سيشرح ما جرى في الحلم...

– أنت رأيت: قال والدي،
فلا تقصص رؤياك على إخوتك
لم أتقصص مجازات الرؤيا. أنتحل مزاعم الآخرين، وأستعير من
لغاتهم لساني.

أليس الحلم ماء يجري مجرى السحاب، وحين تتوق الأرض
لصريفه، يأتي كما لو أنه كان على موعد مع عناق حلاوته
لا
شيء ضاهى نداوتها.

لم
يا أبي
تريدني أن أخفي ما رأيت ..
هل حين كنت ترعانا، لم تعلمنا كيف نؤوب إلى أرحامنا إذا ما
هبت نار، أو أقبلت الحرائق من كل الجهات ..

ألأن إرثنا من النساء كان بلا ريع، و الأرحام تفرقت بنا، ولم يعد
يجمعنا ماء، أم
أن الرؤيا
كانت وديعة منك لي
حملتني عبثها ..
ولم تشأ أن يصير الأمر جهراً، حتى
لا

تَأْكُلُ الْأَرْحَامُ بَعْضَهَا،
أَوْ
تَتَفَتَّتْ عُرَانَا
حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَكُونَ الْجُرْحُ التَّمَّ
أَوْ آتَبِ الرِّيحُ عَلَى صَرِيْفِهِ ...

لَا
يَقِينُ فِي الْحُلْمِ .

رُبَّمَا كَانَتْ الرُّؤْيَا أَضْعَافَ حُلْمٍ لِعَبَتِ الشَّيَاطِينُ فِي مَائِهِ،
وَلَمْ يَبْقَ لِي
سِوَى مَا قَدْ يَكُونُ عَالَةً عَلَى نَفْسِي

كَمْ كُنْتُ أَوْدُدُ أَنْ يَجِيءَ تَرْفِيءٌ مِنْ نَفْسِي
لَا

مِنْ هِبَاتِ أَحْلَامٍ
رُبَّمَا
كَانَ شَطْفُ الْمَكَانِ يُوحِي بِدَمَائِثِهَا
أَوْ

تَشِي بِبَعْضِ ذَلِكَ النَّزَقِ الَّذِي كُنَّا نَحْوِضُهُ
اتَّقَاءَ رَتَابَةِ أَيَّامٍ
لَا

رِيحٍ
كَانَتْ تَجْرِي فِي مَرَاثِهَا .

شَرِبْنَا مِنْ نَفْسِ الْبِغْرِ .

لَيْسَ مُهِمًّا أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ مُرًّا
أَوْ
مَالِحًا
كَانَ يَكْفِي أَنْ تَدُسَّ السُّطْلَ
فِي ظِلَامِ الْبَغْرِ
لِيَطْلَعَ النَّهَارُ بَارِدًا
مَنْ رَوَّاحِهِ يَصْعَدُ ضَوْءُ أَنْفَاسٍ
خَالَجَهَا الظَّمُّ

– « اشْرَبْ
فَهَذَا طَعْمُ مَاءِ الْجَنَّةِ

– « هَلْ طَرِيقُ الْجَنَّةِ مُظْلِمٌ
يُشْبِهُ فِي لَوْنِهِ طَعْمَ ظِلَامِ نَهَارِنَا ..

بِالذُّهُولِ ذَاتِهِ شَجِبَتْ صَرِيفَكَ . لَيْسَ ثَمَّةً، فِي مُفْتَرَقِ الرِّيحِ، مَا
كَانَ يَشِي بِانْخِطَافِي . كُلُّ الْمَوْشَرَاتِ كَانَتْ تُوحِي بِانْجِرَافِكَ، أَوْ
هَكَذَا

بَدَتْ عِلَامَاتُ طَرِيقِ، دَعَلُهَا لَمْ يَتَّحْ لِي أَنْ أُزَاوِلَ حَصَافَتِي
أَوْ

أَفْرَجَ عَنِ عَقْلِي، الَّذِي خَانَ وَاجِبَهُ .
حَدَسْتُكَ وَحَدَهُ بَقِيَّ يَخُوضُ نَزَوَاتِهِ،
وَيَسْرُحُ مَا يَجْرِي، بِمَا لَمْ يَتَّاتَ بَعْدُ .

لذا

خَلْتُ أَنِّي عَلَى قَيْدِ أُمَّلَةٍ مِنْ حَتْفِي، فَكَتَفَيْتُ بِاقْتِرَافِ الْكَلَامِ، عَلَّ
مَا يَخْرُجُ مِنْ شَظْفِ الْكَلِمَاتِ يَكُونُ لِي قَرِيٌّ، بِهِ أَسْتَبِيحُ سَرَاحِي،
وَأُنْجُو، رُبَّمَا، مِنْ غِنَاءٍ، لَمْ يَكُنْ لِسَانِي اسْتِطَابَهُ.

بَلَوْتُ كُلَّ الْخِيَبَاتِ، وَ أَدْرَكْتُ مَعْنَى أَنْ يَكُونَ الْبَيْتُ حَافِلاً بِنِسَاءٍ،
طَعْمُ الشَّيْءِ يَصْعَدُ مِنْ جَوْفِهِنَّ، كَمَا كَانَتْ رَوَائِحُ النَّوْمِ تَصْعَدُ مِنْ
طَيِّبَاتِ أَفْرِشَةٍ

لا

أحد

كَانَ يَكْثُرُ بِخُشُونَتِهَا.

اسْتَطَعْتُ، بِمَا أُوتِيتُ مِنْ عِنَادٍ، أَنْ تُرْمَنَ جِلْدَكَ عَلَى احْتِمَالِ
شَظْفِ الْفِرَاشِ، وَ أَنْ تَنَامَ مُلْتَفًّا بِأَوْزَارِ الْأَمِكِ.

لا

فَرَقَ

بَيْنَ قَمِيصٍ لِلنَّوْمِ
وَ آخَرَ لِحُشْرَجَاتِ أَيَّامٍ، كَمْ كُنْتَ تُرَاوِعُ عِرَاءَهَا..

مقاطع من ديوان «حجر الفلاسفة» الجزء الثاني من «شرفة يتيمة»

عنوان الجزء الأول «خبز العائلة».